غابريل غارسيا ماركيز في روايته الأخيرة «ذاكرة غانياتي الحزينات»:

رواية من أجل تجديد تباريح الهوى

عبد الفتاح الحجمري *

■ في روايته الأخيرة «ذاكرة غانياتي الحزينات»، والقصيرة بالقياس إلى رواياته النّهرية الشهيرة، يحتفل غابريل غارسيا ماركيز بالعشق والوجدان والحلم والرومانسية الساحرة، وهي طبعا موضوعات أثيرة لديه وناظمة لعالمه الحكائي. إنها، إذن، رواية/ تجميع لحياة بطلها: أستاذ النحو اليوناني- اللاتيني وصحافي معروف في العقد التاسع من عمره، يعيش وحيدا بمنزل كولونيالي اشتراه أبوه أواخر القرن التاسع عشر على الحاشية المشمسة من حديقة سان نيكولا. وقد أمضى كل حياته بدون زوجة ولا ثروة، حيث عاش أبواه، وحيث يودّ أن يموت على الفراش الذي شهد ميلاده، وحيدا وفي يوم يريده بعيدا وغير مؤلم. علاقاته الغرامية والعابرة لم تترك له وقتا للحب؛ ولذلك، فهو يفتتح سرده بهذه العبارة الأخاذة:

«قررت أن أمنح لنفسي ليلة عشق مجنونة مع مراهقة عذراء احتفالا بالذكرى التسعين لميلادي (ص 9)» سيدعو الفتاة فيما بعد ديلغاديا: صبية في الرابعة عشرة من عمرها من العاملات الفقيرات بإحدى مصانع أزرار القمصان. وسيطلب من إحدى الوسيطات، صديقته روزا كابركاس، ترتيب أجواء متعته بالفندق، هناك في قاع المدينة.

ليست الرواية وصفا لصور وتعابير أجواء تلك المتعة لأن صاحبها يعيد من هذه اللحظة النظر في معنى وجوده وصداقاته،ويأسه وعزلته، وجدوى كتابته للمقالة الأسبوعية التي يصدرها كل يوم أحد.

يروي التسعينيّ حكايته عفو الخاطر بعبارة واضحة وشفافة وكثيفة، تنزح به العبارة حينا نحو المخبوء والدفين في النفس والكيان، وتقيم حينا آخر على شفاف الوجدان في تقلباته بين الحنين والخواء واللاطمأنينة . ونراه يعلن بحزم – ومنذ الصفحات الأولى من الرواية – بأن قضيته هاته وشاغله في سنه، تغدو فيها كل ساعة عاما (ص 10) ولا مهرب له سوى الانكفاء على آثار العمر، وحمل ما تبقى من قوّة ونباهة للتعبير عن فكرة محورية لمقاله الأسبوعي الذي خصصه – من فيض المرارة والوحدة ؟ – لتمجيد الشيخوخة .

وبينما هو مأخوذ بهذه الفكرة البارقة، ساءل نفسه : متى بدأت أحسّ بالشيخوخة؟

كان عمره اثنان وأربعون عاما لمّا أحسّ بألم في ظهره منعه من التنفس. زار الطبيب الذي اعتبر الألم عاديا بالنسبة لسنّه . «وفي هذه الحالة، قلت له، فإن الشيء غير العادي هو سنّي»؛ وجه إليه الطبيب ابتسامة و قال :« أظن أنك فيلسوف (ص 15)».

يتذكر الآن أنه لم يكن يعير أدنى اهتمام للزمن وهو في أربعينيات عمره المديد، وكان يعتقد أن العلامات الأولى للشيخوخة تعلن عن نفسها حين تبدأ في أن تشبه أباك . وفي عقده الخامس تجلت له الشيخوخة وتكشفت من ثغرات الذاكرة وحالات النسيان والسهو المتكررة، كأن يبحث عن نظارته فيكتشف أنها موضوعة فوق أنفه أو يحملها معه في جيبه ؛ ثم إنه ذات يوم أفطر مرتين ونسي أنه تناول فطوره الأول (ص 15 – 16)؛ وفي العقد السادس شعر أنه لم يعد يملك السنوات الكافية ليفعل ما يشاء ؛ وانتابه خوف رهيب تواصل في العقد السابع مشفوعا بأن ما يحياه هو آخر سنوات العمر .

وها هو اليوم يقرر أن يحتفل بعيد ميلاده التسعين بصحبة فتاة عذراء لتجديد تباريح الهوى أو الشجن ... لا يهمّ؛ فهو لا يحكي مغامراته ومآسي حياته التي خطر له أن يسميها «ذاكرة غانياتي الحزينات» إلا ليمنح معنى ما لكينونته قبل أن يلفها العدم من كل جانب .

حقيقة مرئية وأخرى لا مرئية اكتشفها لتخفف عنه قليلا من أعباء التيه والوحدة ووحشة ما يحياه من لحظات : التحولّات الأولى لذواتنا تكون بسيطة ولا نكاد نلاحظها، نتبينها، فنواصل النظر إلى ذواتنا من الداخل كما كان حالنا على الدوام، في حين يكتشف الآخرون تحولاّتنا من الخارج (ص 15) . أبهذه الحقيقة يمكنه أن ينتصر على تهيّبه حتى تبدو الحياة مستساغة، ويبقى على وفاق معها ؟

لقد ظل بطلنا التسعيني طيلة حياته يؤمن بأن عمر الإنسان تحدده المشاعر لا توالي الأيام والليالي ؛ وهو في هذه الليلة تحديدا يكتشف رغبة أكيدة لتأمل جسد فتاة نائمة، يتأمله من غير استعجال لأية رغبة، ومن دون سيئات الحياء (ص 37).

الكينونة في هذه الرواية البديعة مبتدأ الحكاية ومنتهاها، وتسعينيُها ليس له غير أناه ملاذا، متآلف مع وحدته: «كنت أحسّ دوما أنني لستُ وحيدا بالبيت . تفسيري لذلك أننا حين ننسى أحداثا واقعية، فإن أحداثا أخرى لم يسبق لها أن وقعت يُمكنها أن تستقر بالذاكرة كما لو أنها حدثت بالفعل (ص 69) ».

ملاذ غني وتآلف فسيح يصلان بالتّسعيني إلى عتبات «عمر جميل» الشعور فيه بالحبّ مُؤجل لا مكبوت: «أعرف اليوم أن الأمر لم يكن يتعلق بهلوسة، بل بمُعجزة أول حبّ وأنا في سنّ التسعين (ص 71) ».

بهذا الإحساس يودّ التسعيني أن يعود إلى الحياة، ويحكي عنها بسعادة؛ ورغم إيمانه بأنه «ليس هناك من شقاء قاهر سوى أن تموت وحيدا (ص 112)، «فهو واجد حرارة العاطفة ولا خيار له سوى الاستكانة إلى هواها إن أضناه أو أفناه، فهو اليوم موقن» من أن هاته هي حياته الحقيقية، قلبه سليم، ومحكوم عليه بالموت عشقا في نهاية احتضار للذة، يوما ما بعدما يبلغ مائة عام (ص 129)... وكما في حلم لا سأم فيه ولا ألم أو غياب أحبة... كما في حلم يتخطّى الزمن وتكون فيه حواسه خفيفة، وإحساسه مرحا لا مثوى أخير لهما، وهو مأخوذ بفتنة العشق في ما يفترض أن يكون نهاية الرحلة، وما هي إلاّ البداية كي لا يأكله اليأس وينهشه الوهم ... أو تحاصره العبارة الاستهلالية لياسوناري كاواباتا في «الجميلات النائمات» والتي وضعها في مفتتح الحكاية»: من فضلكم، عليكم تجنب مضايقات الذوق الرديء ! لا تحاولوا وضع الأنامل في فم الصغيرة النائمة ! لن يكون الأمر لائقا».

هناك أكثر من رابط وفاصل،في الآن ذاته، بين نص الياباني ياسوناري كاواتابا «الجميلات النائمات» ونص الكولومبي غابريل غارسيا ماركيز «ذاكرة غانياتي الحزينات»، كلاهما صدى لمقاومة انهيار الرغبة و تصلّب المشاعر، أو شحوب الزمن وأفول الذكرى؛ كلاهما يفيد أن الكينونة تمرّ من عمر إلى عمر، واحد يأتي والآخر يسير، وبينهما تبدو الكينونة وكأنها في زمن آخر ومكان آخر، تتوق دوما إلى عشق لا يستكين لخدائع الخيال، ولا يودّ أن يكون الموت مسك ختامه . ورواية ماركيز من الروايات التي تتضمن «حكاية شخصية» لا تعكس بالضرورة تجربة الكاتب، بقدر ما تصوّر تجربة إنسانية من عمق لحظة تتوازن فيها هشاشة الجسد بهشاشة الروح؛ هي حكاية شخصية بالنسبة لساردها الذي ينقل تجربته من مسالك الحميمية والكتمان، إلى لحظة وجودية يمكن سردها وتكون بالنسبة إليه شفيعا ليتأمل ما فعله في حياته ؛ فقد عاش ليروي، ليلتقط الوضع المفارق،الهزلي والتراجيدي وما بينهما من رغبات وأحلام ... وليبتكر الأسلوب الملائم لإقناعنا بأن ما نقرؤه هو قصة حقيقية وواقعية، وهذا وحده كفيل بكتابة حكاية أدبية رفيعة، ملفوفة برومانسية ساحرة قادرة على ترميم انكسارات النفس وحمايتها مما يلفها من صمت ووحدة .

غابرييل مارسيا ماركيز

---

* ناقد من المغرب

Gabriel Garcia Marquez : Memoire de mes putains tristes, Roman,Grasset, 2005

عدد جديد من «وجهات نظر» وافتتاحية ساخنة عن أزمة إيران واستعراض لحياة الجواهري بين صراعات السنة والشيعة في العراق

القاهرة ـ «القدس العربي»:

صدر العدد الجديد من شهرية ـ الكتب وجهات نظر ـ وافتتحه رئيس التحرير سلامة بمقال عنوانه ـ إيران على مفترق طرق ـ يشير المقال الى عشرات الاسئلة المطروحة حول سياسة الرئيس الايراني أحمدي نجاد وما اذا كان يسلك مسارا مغايرا للتسلسل الطبيعي لتطور نظام الحكم، وينقل سلامة بعض هذه التساؤلات التي تتمثل في مدى قدرة نجاد على مواجهة المشاكل الداخلية والتعقيدات الخارجية التي تهدد بعزل ايران، أم تنتهي سنوات حكمه بانفجار كبير يطيح بالنظام الاسلامي وانجازاته، لا سيما بعد الخطاب الذي ألقاه نجاد في مؤتمر ـ العالم بدون صهيونية ـ ودعا فيه الى محو اسرائيل من الوجود.

ويستعرض سلامة في افتتاحية المشروع النووي الايراني الذي يراه يحتل مكانة خاصة في مشروع النهضة لأنه مشروع ـ حسب سلامة ـ تلتقي فيه الثوابت العقائدية والاستراتيجية، مع المشروعات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي تستهدف امتلاك التقنية النووية المتقدمة بكل الوسائل الممكنة وفي القلب منها الاصرار على تخصيب اليورانيوم في المنشآت الإيرانية.

ويضيف سلامة ان إيران تستند في اصرارها على استكمال مشروعها النووي الى اسباب عديدة: اولها انها وقعت على معاهدة حظر الانتشار النووي التي تكفل لها الحق في تطوير برنامجها النووي، ثم وقعت طواعية على البروتوكول الاضافي لهذه المعاهدة الذي يعطي لمفتشي الوكالة الدولية للطاقة النووية حق التفتيش المباغت على أي منشأة نووية ايرانية، ويقول: وحتى عندما اخطأت بالشروع في تجارب التخصيب دون اخطار مسبق للوكالة، فان اكتشاف الأمر أتاح لمفتشي الوكالة التأكد من ان عمليات التخصيب لم تتجاوز الحدود المسموح بها ضمن اطار التطبيق في الاغراض السلمية.

اما المقال الثاني والمهم في العدد فهو المقال الذي كتبه الناقد والكاتب اللبناني جهاد فاضل تحت عنون ـ الجواهري، قراءات عراقية طائفية ـ ويتناول جهاد في مقالته سيرة الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري وموقف الباحثين العراقيين منه، ويقول فاضل: ان الباحث العراقي المنحدر من العرب السنة يعتبر الجواهري شاعرا شيعيا أو رمزا شيعيا، طرده مدير المعارف العراقي ساطع الحصري من وظيفته كمدرس ابتدائي بسبب قصيدة شعرية تغزل فيها بإيران وذم فيها العراق، ولكن الملك فيصل الاول عاد وعينه في وقت لاحق موظفا في البلاط الملكي مراعاة منه لأصوله الشيعية والنجفية، اما بالنسبة للباحثين العراقيين الشيعة فيرون ان ساطع الحصري نفسه متهم بالطائفية والمذهبية كما انه امتدادا للمدرسة التركية البريطانية في العراق بعد الاستقلال، بل ان بعض هؤلاء الباحثين يرجع استشراء الطائفية في العراق الى الدور السلبي الذي لعبه الحصري.

اما الكاتب والشاعر خيري منصور فقدم مقالة مطولة تحت عنوان ـ البطرياركية العربية والفطام المحرم ـ تناول منصور مفهومه للبطرياركية في عمومه ثم تحدث عما يسميه بالبطرياركية العربية والتي يراها المعادل العضوي للوصاية وتأجيل سن الرشد ويقول: انها ربوية بامتياز لأنها تضاعف المديونيات قدر تعلقها بالوعي وبالمسكوت عنه، لهذا فهي إذ تحرم الفطام تنزع ايضا بالضرورة الى ما أسميه ختان العقل فالماضي حسب رياضياتها قادم من المستقبل وما من سبيل للخلاص حسب أدبياتها غير النسج على غراره.

أما مدرس الفلسفة مجدي عبد الحافظ فقدم ترجمة لرد المفكر الراحل الشيخ جمال الدين الافغاني على الفيلسوف الفرنسي رينان الذي جاء بعنوان «ظلمات المسلمين المالكة»، وقدمت سلمى حسين مقالا بعنوان «البشر قبل الارباح» المأزق العولمي لمنظمة التجارة، وقدم عماد الغزالي قراءة في عدة كتب تحت عنوان ـ مصر في رسائل فلوبير ـ وهو عنوان كتاب صادر عن دار السويدي بأبي ظبي للمترجم صلاح صلاح، وكذلك كتاب مصر في عيون الغرباء، ترجمة ثروت عكاشة وصادر عن دار الشروق، ورؤية الرحالة الأوروبيين لمصر ترجمة إلهام ذهني، وحريم محمد علي باشا لصوفيا لين بول ترجمة عزة كرارة.

أما حمدي عزام فقدم قراءة لكتاب ـ التاريخ يعيد نفسه:

العالم بعد 11 ايلول (سبتمبر) وتجديد الغرب ـ وهو لوزير الخارجية الالمانية السابق يوشكا فيشر.

أما التشكيلي احمد فؤاد سليم فقدم مقالا بعنوان ـ على هامش المسألة الدانماركية ـ: الصورة ايقونة الحياة والموت ـ، كذلك قدم العدد فصلا من كتاب آدم حنين ـ القديم جديدا وهذه الحلقة عن الفنان مايكل فرانسيس جيبسون.

كذلك قدم العدد فصلا من كتاب السورية الراحلة ـ امل الخير ـ تحت عنوان ـ زبدة والبحث عن الجمال ـ اما الصحافي جمال محمد غيطاني فقدم مقالا بعنوان ـ هل يعرف العرب مجتمع المعلومات؟ ـ كذلك تضمن العدد الابواب الثابتة: الرسائل والآراء والاصدارات الجديدة. أما كلمة الصفحة الاخيرة فكانت لمدير التحرير أيمن الصياد.

تصدر مجلة «الكتب وجهات نظر» عن دار الشروق للنشر والتوزيع، ويقع العدد الجديد في 82 صفحة من القطع الكبير.

الانقلابُ المُوريتاني

حكمت الحاج*

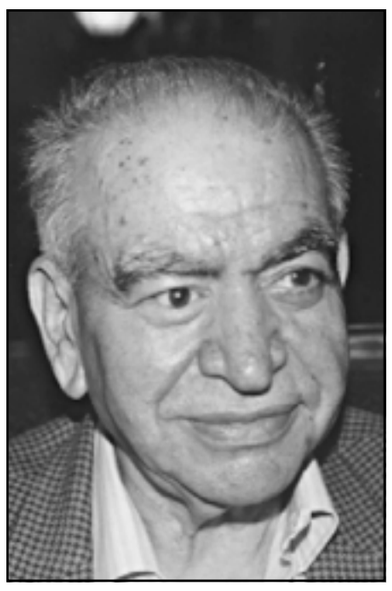

(ذكرى جرجي زيدان)

لكَمْ أحبَبْتُ الانقلابَ
المُوريتانيَّ فإنَّ صديقيَ
الشاعرَ الذي
طالمَا غنَّى فوقَ
رصيفِ الرفْضِ ببَغْدَادَ
صارَ بعدَ سنينَ
عُضْواً في انقلابٍ
وتلكَ التي قرَأَتِ البيانَ
الأولَ للثوارِ رفيقتُهُ
وأولئكَ الذينَ..
إلى ما هنالكَ...
وأخيراً
بلدٌ ينهضُ فوقَ رُكَامِ الفَلْسفَاتِ
ناهلاً من مَعِينِ الشِّعرِ
خطابَهُ الثَّوريَّ
ولكنْ
مَهْلَكُمْ
فلَا أنا رأيتُ الطَّيبْ ولَدْ أَبَّاهُ
يَقرأُ شعراً في التلفزةِ الموريتانيةِ
ولَا سمعتُ بأنهُ فَتَّ الشايَ في
المجالسِ هناكَ بِسكَّرِ الحضارةِ
ولَا الرفيقةُ زوجتُهُ خرَجتْ
من السجنِ لتُعلنَ ميلادَ
النُّورِ تحتَ رايةِ مَا تبقَّى
منَ اليسارِ
وبالرغمِ من
كلِّ ذلكَ
لكَمْ
أحبَبْتُ
الانقلابَ
المُوريتانيَّ
فقَدْ حَضِينَا أخيراً بمذيعةٍ جميلةٍ.

---

* شاعر من العراق

«أغنية نفسي»: عن أدب العجيلي

ممدوح عزام *

■ ما زلت أذكر ما حدث لي يوم قرأت قصة «الشّباك» لعبد السلام العجيلي، وهي إحدى قصص مجموعة «قناديل اشبيلية» قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة، فقد أغلقت الكتاب، مُتأثراً، ومُضطرباً، ازداد خفقان قلبي، وارتفع توتري، وانخرطت بعد دقائق في فيض من الأسئلة، استقصي بها، وفيها الإجابات الممكنة عن السؤال المركزي الصادم في نهاية القصة: لم مات عارف؟ واكتشفت إثرَ تأمل وتفكير عميقين، أنّ لدي حزمة موازية من الاقتراحات والافتراضات أو القراءات المتعددة، قد نقول إنه القدر، أو إنه الهلع من المطاردة، أو هو الرغبة في الموت، أو الارتباك والضغط النفسي الشديد، أو التهاب الزائدة الدودية. ولكن أياً من هذه الاقتراحات لم يستطع أن يستغرق القصة و أحداثها، ولم يُجب إجابة جازمة ونهائية عن سؤالها. وسأعترف بأنني لم أعثر على جواب. ولكنني لم أنسَ القصة قط، وظلّ إعجابي بها، وتأثري بمناخها (وبشخص عارف حصراً) يتناميان، إلى أن قصصتها على شلة من الأصدقاء، وحينئذ رجّح أغلبهم كفة القدر، فزاد هذا في اضطراب موقفي منها. أما حين قرأها واحدٌ منهم، وعرفت أنه نقض كلامه عن ترجيح القدر، فقد اكتشفت أمراً آخر وهو أنّ تحوّل النص الأدبي إلى حكاية، يُمكن أن يَسلبه توتره السردي، وتمثيله الرمزي أو الكنائي، مثلما يضعه في خط دلالي وحيد.

لهذا عدت إلى القصة مرات عديدة، في محاولات لفكفكة عقدتها السردية، أو معرفة مغزاها، أو استنطاق خطابها الفكري، وفي كل هذه المحاولات كنت ألاحق قطباً واحداً ـ وإن كان مُتعدد الشعب ـ هو قطب المعنى.

لا أنكر أنني أدنت القصة في أحد التأويلات، حين اقتنعت أنها ترزح تحت وطأة الرضى والتسليم أو «الخنوع» في قراءة أخرى، لهيمنة القدر على المصير البشري، أو هي تحط من شأن الإرادة والاختيار الإنسانيين لصالح جبر غاشم. وإذا كانت هذه الإدانة قد أراحت ضميري من الناحية الفكرية، فإنها لم تتمكن من انتزاع إعجابي بالقصة، وحنيني الدائم لقراءتها من جديد... وهو ما كان يُعيدني إلى السؤال الفاعل والجوهري : ما السرّ الجاذب في هذه القصة ؟!

لا بُدّ أنّ ثمة ما يتجاوز نطاق المعنى، يمنحها مادة البقاء والتأثير، فهل الجواب كامن في بُنيتها نفسها، في القص ذاته، في الأداء والتقديم؟ هل هي قصة غامضة؟ أو مُلتبسة؟ ولكن ألا يُمكن أن نجد لغةً مختلفة لقراءة مختلفة ؟!

يذكر من قرأ هذه القصة أنّ العجيلي قدّم لها، بقصة شهيرة من قصص الأنبياء هي التالية : «قال الخضر لصاحبه: هذا ملك الموت قادمٌ إلينا، فاستولى على صاحبه الفزع وقال له: يا نبي الله إني خائف. أدع ربك أن ينقلني الساعة إلى الهند. فدعا الخضر ربّه، فأرسل الله ملكاً حمل صاحب الخضر إلى الهند في ساعته. وتقدّم ملك الموت وعلى ملامحه الدهشة إلى الخضر، فقال له الخضر: ماذا يُدهشك ؟ قال ملك الموت: يُدهشني أني رأيتُ صاحبك هنا، وفي لوح الأزل مكتوبٌ أني أقبض روحه اليوم في الهند».

تقول إحدى شخصيات رواية «أوبابا كواك» للكاتب الأسباني «برناردو اتشاغا» إنّ هذه هي أفضل قصة في العالم، ذلك أنّ القصص في رأي شخصيات الرواية، والراوي فيها، تنقسم إلى قسمين فقط: جيدة أو سيئة!

وسبق أن قال «غابرييل غارسيا ماركيز» في حواراته مع «بلينو مندوزا»: «إنّ واجب الكاتب، واجبه الثوري.... هو أن يكتب بشكل جيّد»، فهل يُمكن أن يكون هذا هو المفتاح !! في مرات كثيرة كنت أسأل المهتمين بالقراءة والمطالعة من الرجال والنساء الذين أعرفهم، هل قرأتم قصص عبد السلام العجيلي؟ وكان الجواب يأتي بالنفي غالباً. فأقدّم للصديق أو الصديقة كتاباً له، وحينئذ تظهر المفاجأة، وهي أنهم جميعاً كانوا يعترفون بجمال قصصه. وأنتم تعرفون الكلمة التي يستخدمها القارئ العادي في لهجتنا المحليّة للتعبير عن إعجابه بقصة: حلو!!

هذه الحلاوة هي الجرعة المحسوبة والضامنة لأي نص أدبي في العالم كله، وفي اعتقادي أنها الإملاء الوحيد، أو الشرط الجائز الذي يُمكننا كقرّاء أو نقاد، أو كتّاب أن نمليه أو نشترطه على أي كاتب. وهو ينطوي بالضرورة على النتائج التي يرغب فيها الكاتب. أي أن يكون مقروءاً. وأن يُقال أنه كاتب جيّد، حلو، جميل..!

وأي خطاب قومي، أو وطني أو طبقي أو إنساني، أو فلسفي أو عاطفي، يُمكن أن يفسد أو يتضعضع أو يفقد جوهر رسالته، إذا ما زال عنه طعم الحلاوة.

أذكر الآن أنّ عبارة «ماركيز» التي تصدرت الترجمة الأولى لروايته الشهيرة «مائة عام من العزلة» قد صححت نظرة جيل، أو أجيال من الكتاب والنقاد والقرّاء تجاه الأدب في المحيط العربي، والداخل السوري على وجه الخصوص. وكنت أتمنى أن يزداد مفعولها أكثر. ونصيب عبد السلام العجيلي منها كبير، وقد خلصت قصصه، حين أضحت جزءاً من البينة الفكرية للجيل الشاب من القرّاء والكتاب، من نقد سائد سبق أن تناول أعماله من باب السياسية، أو الأفكار أو الأيديولوجيا، فوصف مرّة بأنه من شواهد المجتمع القديم، وقيل عنه مرّة إنه يُمثل القيم الإقطاعية في القصة السورية، وأشار ثالث إلى أنه يُعادي العلم أو يُساويه بالخرافة، وقد نجم عن فعل هذا النقد بلبلة في وجهتين: إحداهما تنفير القرّاء من أدب العجيلي، والثانية إفساد جيل من المواهب الشابة. فالكتابة النقدية أخذت شكل المقرّر المدرسي، ومالت إلى رسم أو وضع جملة من الإملاءات والمساطر الفكرية. من اتجاهات وتيارات إيديولوجية مُتعددة. وأنا أتحدّث هنا عن كثير ممن أعرفهم من أبناء جيلي. كان من الخاسر أن نكتب وفق اللوائح، ودفاتر الشروط.

عبد السلام العجيلي (القدس العربي)

حتى لو كانت تدعونا للكتابة عن الفرح والأمل والبطل الإيجابي، والصراع الطبقي كوصفات وحيدة، ومن الصعب في الوقت نفسه أن تكتب ضد ذلك في مناخ مُسيطر يقمع المخالفة، أو يصادر الكتابة الخارجة عن المقرّر، أو يتجاهلها حتى لو كانت جيدة. واسمحوا لي أن أشير مرّة أخرى إلى أنّ شرط الكتابة هو الجودة، أما الموضوعات فهي حرّة، مطلقة بلا قيود، بينما كنا هنا نقدّس الموضوع ونحتفي بالفكرة، حتى لو جاءت على حساب أو نفقة الكتابة الجيدة.

في قصص عبد السلام العجيلي حلاوة آسرة بالفعل، وإذا ما تأملنا مطالع قصصه، سوف نجد أنّ أول ما يفعله هو الإمساك بتلابيب القارئ. وليس بوسع القارئ أن يتخلى عن قصة العجيلي، بعد أن يقرأ الأسطر الثلاثة أو الأربعة الأولى منها. وقصصه تميل إلى استعارة صياغات الحكاية، ونهجها في التشويق ـ ولم لا؟ ـ ولكننا نرى أنّ القصة سرعان ما تنحو داخل حقلها كنص أدبي يتباين ويختلف عن منطوق الحكاية.

واسر البدايات أو مشوقها لا يكفيان، ولا يتوقفان داخل المتن أيضاً، فالسرد يظلُ مُستمراً متواصلاً ببطء أحياناً، أو بسرعة، محافظاً على الإيقاع الجاذب ذاته، ليأخذنا بمهارة وحب إلى النهايات. وعندها سوف نلاحظ أمراً آخر مختلفاً عن البدايات. سوف يتركك العجيلي في النهاية وعليك أن تعيد بناء القصة مرة أخرى مُرغماً أو مُضطراً: شيء ما شبيه بما قاله «فولتير» ذات يوم: إنّ أجمل الكتب (أو القصص هنا) هي التي يكتب نصفها خيال القارئ.

ليست لدى العجيلي نهايات، والأفضل أن أقول أنّ لديه نهايات وليست خواتم. فالخاتمة قفل، لا يتمدد النص خارج حدودها، أما النهاية فإنها تنفتح على آفاق يُمعن الخيال ـ خيال القارئ ـ فيها، من أجل إعادة تركيب القصة، أو مشاركة الكاتب في الإمكانات المتعددة الممنوحة من قبله للتخيّل، ومعرفة أو توقع النهايات.

وقصصه عصيّة على التلخيص، مثل أي عمل جيّد، إذ أنّ هذا الإجراء يسلب النص قوّة الحضور، ولا حضور إلا بالاكتمال، وأكثر قصصه مكتملة، لا من حيث المعنى، فهذا ما ينقصها دائماً، وهو نقص إيجابي فعّال مُحرّض، بل من حيث الأداء والبناء، والحوار واللغة والشخصيات، وغير ذلك من عناصر القصة. وهذه واحدة أخرى من فضائل الجمال أو الحلاوة التي أشرت إليها.

يُمكنني أن أتحدّث عن تغلغل العالم الغرائبي أو السحري أو العجائبي (خذ ما شئت من مصطلحات الأدب الأمريكي اللاتيني) في قصص عبد السلام العجيلي، وهو ما كان النقد لأدبي في سورية، يُشير إليه على أنه نكوص إلى الأسطورة والخرافة والقوى الروحيّة. الباهر هنا أنّ العجيلي سار على الدرب وحده، بفضل وعي مُبكر بطبيعة الأدب، والكتابة القصصية التي تحتفي بذاتها، وتعلم أنّ أي موضوع مُباح لها بلا قيود. وأنتم تعرفون أنّ الواقعية السحرية قدمت العالم على أنه مُتماسك ومُنسجم لأنّ العقلاني واللاعقلاني يُشكلان معاً مجموع الواقع، في موالفة أو مغالبة للمتناقضات.

وقصص العجيلي لم تكن تراجعاً أو انسحاباً من «مواجهة الواقع» وإنما محاولة للإمساك بالضائع، والمحجوب في الحياة الإنسانية، ذهاباً إلى الأطراف القصيّة منها لاكتشاف الكامن والمخبأ والسّري، والسؤال عن جوهره.

وإذا ما اختارت (هذه القصص) القضايا الكبرى، كالموت مثلاً، فإنها لا تتنكر لليومي والمعيش، بل إنّ الإنساني في قصصه هو ابن هذا المكان. هو ابنه المغمور الضئيل الصغير الباحث بدأب عن مسالك العيش ومعنى الحياة، دون أن تغفل عينه مرة واحدة عن المال أو المصير. إنسان محكوم بما هو عادي وغريب في آنٍ واحد، يُقلقه الموت والنهر معاً، الخرافة والقهر السياسي، الحب والثأر، الحاضر والتاريخ، المواربة والإحباط، والرغبة في المقاومة، ويُمكن أن نعدد العشرات من الثنائيات المتألقة أو المتضادة التي تعج بها القصص، مُشيرة إلى أننا إذا ما وجدنا الكاتب مشغولاً «بالماورائيات» فإنّ قدميه غائصتان في طين الأرض، وفي كل مرّة يُقدّم لنا ذلك كله في قصص حيّة، مُشربّة بالألوان، تسري فيها حيويّة نابضة، ويخفق القلب البشري بكل آماله وهمومه.

أخيراً فإنّ ما كتبته في الصفحات القليلة إنما هو «أغنية نفسي» عن أدب العجيلي، لأعرف إن كنت قد أجبت عن أسرار الجذب في قصصه، غير أنني كلما قرأت قصصه أقول له: شكراً. لا لأنه كتبَ عن أي «قضية» مهما كانت أهميتها وفحواها، وإنما لأنه كتب قصة مُمتعة، عن هذه أو تلك من القضايا، وكتبها بشكلٍ جيّد.

---

* كاتب من سورية